غَزْوَةُ الخَنْدَقِ

تَارِيخُ الغَزْوَةِ:

وتسمى بغزوة الأحزاب، وقد كانت فى شوال سنة خمس على ما جزم به ابن إسحاق وعروة ابن الزبير وقتادة والبيهقى وجمهور علماء السيرة، وقيل: فى سنة أربع من الهجرة وقد تفرد به موسى بن عقبة، ورواه عنه البخارى وتابعه فى ذلك مالك [١].

أَسْبَابُهَا:

إن يهود بنى النضير بعد أن خرجوا من المدينة إلى خيبر خرجوا وهم يحملون معهم أحقادهم على المسلمين، فما أن استقروا بخيبر؛ حتى أخذوا يرسمون الخطط للانتقام من المسلمين فاتفقت كلمتهم على التوجه إلى القبائل العربية المختلفة؛ لتحريضها على حرب المسلمين وكونوا لهذا الغرض الخبيث وفدًا يتكون من سلام بن أبى الحقيق وحيى بن أخطب وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق وهوذة بن قيس الوائلى وأبى عمار.

وقد نجح الوفد نجاحًا كبيرًا فى مهمته حيث وافقت قريش التى شعرت بمرارة الحصار الاقتصادى المضروب عليها من قبل المسلمين [٢]، ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم ثم طافوا فى قبائل العرب يدعونهم إلى ذلك فاستجاب لهم من استجاب فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان فى أربعة آلاف ووافتهم بنو سليم بمر الظهران وخرجت بنو أسد وفزارة وأشجع وبنو مرة[٣] واتجهت هذه الأحزاب وتحركت نحو المدينة على ميعاد كانت قد تعاقدت عليه، وبعد أيام تجمع حول المدينة جيش عرمرم يبلغ عشرة آلاف مقاتل جيش ربما يزيد عدده على جميع من فى المدينة من النساء والصبيان والشباب والشيوخ[٤].

تَهَيُّؤُ المُسْلِمِينَ لِلْحَرْبِ:

لم تكد هذه الجيوش تتحرك عن مواضعها؛ حتى نقلت استخبارات المدينة نبأ تحرك هذه الجيوش من مكة، فلما بلغ رسول الله ﷺ الخبر، وسمع بخروجهم من مكة ندب

---

(١) فقه السيرة للبوطي ص ٢٢٥.
(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٥٨).
(٣) سيرة الرسول أبو عمار ص ٣٨١.
(٤) الرحيق المختوم ٢٦٧.

الناس، وأخبرهم خبر عدوهم وشاورهم في الأمر فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر خندق قائلا: يا رسول الله إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا، وكانت خطة حكيمة لم تكن تعرفها العرب قبل ذلك وأسرع رسول الله ﷺ تنفيذ هذه الخطة فوكل إلى كل عشرة رجال أن يحفروا من الخندق أربعين ذراعًا، وقام المسلمون بجد ونشاط يحفرون الخندق ورسول الله ﷺ يحثهم ويساهمهم في عملهم هذا [١].

مَشَاهِدُ مِنْ عَمَلِ المسْلِمِينَ فِي حَفْرِ الخَنْدَقِ:

روى البخاري عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ[٢]: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْخَنْدَقِ وَهُمْ يَحْفِرُونَ وَنَحْنُ نَنْقُلُ التُّرَابَ عَلَى أَكْتَادِنَا[٣] فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**اللَّهُمَّ لا عَيْشَ إلا عَيْشُ الآخِرَهْ فَاغْفِرْ لِلْمُهَاجِرِينَ وَالأنْصَارِ**».

وعن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْه: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْخَنْدَقِ فَإِذَا الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ فِي غَدَاةٍ بَارِدَةٍ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَبِيدٌ يَعْمَلُونَ ذَلِكَ لَهُمْ فَلَمَّا رَأَى مَا بِهِمْ مِنْ النَّصَبِ وَالْجُوعِ قَالَ[٤]:«**اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الآخِرَهْ فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ**» فَقَالُوا مُجِيبِينَ لَهُ:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا ... عَلَى الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا

وفيه عن الْبَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ يُحَدِّثُ قَالَ[٥]: لَمَّا كَانَ يَوْمُ الأَحْزَابِ وَخَنْدَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَأَيْتُهُ يَنْقُلُ مِنْ تُرَابِ الْخَنْدَقِ حَتَّى وَارَى عَنِّي الْغُبَارُ جِلْدَةَ بَطْنِهِ وَكَانَ كَثِيرَ الشَّعَرِ فَسَمِعْتُهُ يَرْتَجِزُ بِكَلِمَاتِ ابْنِ رَوَاحَةَ وَهُوَ يَنْقُلُ مِنْ التُّرَابِ يَقُولُ:

اللَّهُمَّ لَوْلا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلا تَصَدَّقْنَا وَلا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا ... وَثَبِّتْ الأَقْدَامَ إِنْ لاقَيْنَا

إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا ... وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

قَالَ: ثُمَّ يَمُدُّ صَوْتَهُ بِآخِرِهَا وفي رواية:

---

(١) الرحيق المختوم ٢٦٧ - ٢٦٩، فقه السيرة للبوطي ٢٢٥.

(٢) رواه البخاري ٤٠٩٨.

(٣) أكتادنا: جمع كتد، وهو مجتمع الكتفين.

(٤) رواه البخاري ٢٨٣٤.

(٥) رواه البخاري ٤١٠٦.

إِنَّ الأُلَـــى قَـــدْ بَغَـــوْا عَلَيْـــنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْـــــنَةً أَبَيْـــــنَا[١]

كان المسلمون يعملون بهذا النشاط وهو يقاسون من شدة الجوع ما يفتت الأكباد، قال أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: قَالَ كان أهل الخندق يُؤْتَوْنَ بِمِلْءِ كَفِّي مِنْ الشَّعِيرِ فَيُصْنَعُ لَهُمْ بِإِهَالَةٍ سَنِخَةٍ[٣] تُوضَعُ بَيْنَ يَدَيْ الْقَوْمِ وَالْقَوْمُ جِيَاعٌ وَهِيَ بَشِعَةٌ فِي الْحَلْقِ وَلَهَا رِيحٌ[٤].

مَوْقِفُ المُؤْمِنِينَ وَالمُنَافِقِينَ مِنَ العَمَلِ فِي الخَنْدَقِ:

عمل رسول الله ﷺ فى الخندق؛ ترغيبًا للمسلمين فى الأجر، وعمل معه المسلمون فيه بجد، وقد أبطأ عن رسول الله ﷺ وعن المسلمين فى عملهم ذلك رجال من المنافقين جعل يورون[٥] بالضعيف من العمل، ويتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التى لا بد له منها يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ويستأذنه فى اللحوق بحاجته فيأذن له؛ فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله؛ رغبة فى الخير واحتسابًا له فأنزل الله فى أولئك المؤمنين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [النور: ٦٢].

وأنزل الله فى المنافقين: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣][٦][٧].

نُزُولُ قُرَيْشٍ المَدِينَةَ:

وأقبلت قريش فى أربعة آلاف؛ حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة بين الجرف

---

(١) رواه البخاري ٢٨٣٧.

(٢) رواه البخاري ٤١٠٠.

(٣) الإهالة: الدهت، سنخة: أي تغيرت من طول بقائها.

(٤) الرحيق المختوم ص ٢٦٩.

(٥) يورون: يخفون ويسترون.

(٦) لواذا: استارًا.

(٧) ابن هشام ٢ / ٩.

ورغابة ، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد فى ستة آلاف حتى نزلوا بذنب نقمى إلى جانب أحد: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢٢] .

وأما المنافقون وضعفاء النفوس فقد تزعزعت قلوبهم لرؤية هذا الجيش: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ١٢] وخرج رسول الله ﷺ فى ثلاثة آلاف من المسلمين ؛ فجعلوا ظهورهم إلى جبل سلع فتحصنوا به ، والخندق بينهم وبين الكفار وكان شعارهم: "حم لا ينصرون" واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم وأمر بالنساء والذرارى فى آطام [١] المدينة[٢] .

مَوْقِفُ المشْرِكِينَ مِنَ الخَنْدَقِ :

ولما أراد المشركون مهاجمة المسلمين واقتحام المدينة وجدوا خندقًا عريضًا يحول بينهم وبينها ؛ فالتجأوا إلى فرض الحصار على المسلمين ، بينما لم يكونوا مستعدين له حين خرجوا من ديارهم - إذ كانت هذه الخطة- كما قالوا مكيدة ما عرفتها العرب فلم يكونوا أدخلوها فى حسابهم رأسًا .

وأخذ المشركون يدورون حول الخندق غضابًا يتحسسون نقطة ضعيفة ؛ لينحدروا منها وأخذ المسلمون يتطلعون إلى جولات المشركين يرشقونهم بالنبل ؛ حتى لا يجترئوا على الاقتراب منه ولا يستطيعوا أن يقتحموه أو يهيلوا عليه التراب ؛ ليبنوا به طريقًا يمكنهم من العبور .

وكره فوارس من قريش أن يقفوا حول الخندق من غير جدوى فى ترقب نتائج الحصار ؛ فإن ذلك لم يكن من شيمهم فخرجت منها جماعة فيها عمرو بن عبد وُدّ وعكرمة بن أبى جهل وضرار بن الخطاب وغيرهم ، فتيمموا مكانًا ضيقًا من الخندق فاقتحموه وجالت بهم خيلهم فى السبخة بين الخندق وسلع .

وخرج على بن أبى طالب فى نفر من المسلمين ؛ حتى أخذوا عليهم الثغرة التى أقحموا منها خيلهم ، ودعا عمرو إلى المبارزة ، فانتدب له على بن أبى طالب ، وقال كلمة حمى لأجلها ، وكان من شجعان المشركين وأبطالهم فاقتحم عن فرسه فعقره

---

(١) آطام: حصون .

(٢) الرحيق المختوم ٢٧٠ - ٢٧١ .

وضرب وجهه ثم أقبل على عليٍّ، فتجاولا وتصاولا؛ حتى قتله على - رضى الله عنه- وانهزم الباقون حتى اقتحموا الخندق هاربين، وقد بلغ بهم الرعب إلى أن ترك عكرمة رمحه وهو منهزم عن عمرو.

وقد حاول المشركون فى بعض الأيام محاولة بليغة؛ لاقتحام الخندق أو لبناء الطرق فيها، ولكن المسلمين كافحوا مكافحة مجيدة ورشقوهم وناضلوهم أشد النضال؛ حتى فشل المشركون فى محاولتهم[١].

شَغَلُونَا عَنِ الصَّلاَةِ الوُسْطَى:

ولأجل الاشتغال بمثل هذه المكافحة الشديدة فات بعض الصلوات عن رسول الله ﷺ والمسلمين عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَمَّا كَانَ يَوْمُ الأَحْزَابِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَلأَ اللَّهُ بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا شَغَلُونَا عَنْ الصَّلاة الْوُسْطَى حَتَّى غَابَتْ الشَّمْسُ**»[٢]. وعَنْ جَابِرِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَاءَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ بَعْدَ مَا غَرَبَتْ الشَّمْسُ جَعَلَ يَسُبُّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا كِدْتُ أَنْ أُصَلِّيَ حَتَّى كَادَتْ الشَّمْسُ أَنْ تَغْرُبَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَاللَّهِ مَا صَلَّيْتُهَا**» فَنَزَلْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بُطْحَانَ فَتَوَضَّأَ لِلصَّلاةِ وَتَوَضَّأْنَا لَهَا فَصَلَّى الْعَصْرَ بَعْدَمَا غَرَبَتْ الشَّمْسُ ثُمَّ صَلَّى بَعْدَهَا الْمَغْرِبَ[٣].

ومن هنا يأخذ أن محاولة العبور من المشركين والمكافحة المتواصلة من المسلمين دامت أياما إلا أن الخندق لما كان حائلاً بين الجيشين لم يجر بينهم قتال مباشر وحرب دامية بل اقتصروا على المراماة والمناضلة وفى هذه المراماة قتل رجال من الجيشين يعدون على الأصابع ستة من المسلمين وعشرة من المشركين بينما كان قتل واحد أو اثنين منهم بالسيف[٤].

نَقْضُ بَنِي قُرَيْظَةَ لِلْعَهْدِ:

وبينما كان المسلمون يواجهون هذه الشدائد على جبهة المعركة كانت أفاعى الدس والتآمر تتقلب فى جحورها؛ تريد إيصال السم داخل أجسادهم، حيث انطلق كبير

---

(١) الرحيق المختوم ص ٢٧١.
(٢) رواه البخاري ٤١١١.
(٣) رواه البخاري ٤١١٢.
(٤) سيرة الرسول أبو عمار ٣٨٧ - ٣٨٨.

مجرمى بنى النضير حيى بن أخطب إلى ديار بنى قريظة ؛ حتى أتى كعب بن أسد القرظى - سيد بنى قريظة- وصاحب عقدهم وعهدهم ، وكان قد عاقد رسول الله ﷺ على أن ينصره إذا أصابته حرب كما تقدم فضرب عليه بابه فأغلقه كعب دونه ، فما زال يكلمه حتى فتح له بابه فقال حيى: ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر وببحر طام ، جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقمى إلى جانب أحد ، قد عاهدونى وعاقدونى على أن لا يبرحوا ؛ حتى نستأصل محمدًا ومن معه ، فقال له كعب: جئتنى والله بذل الدهر وبجهام[1] قد هراق ماؤه ، فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء ، ويحك يا حيى فدعنى وما أنا عليه ؛ فإنى لم أر من محمد إلا صدقًا ووفاءً ، فلم يزل حيى بكعب يفتله فى الذروة والغارب[2] حتى سمح له على أن أعطاه عهدًا من الله وميثاقًا: لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدًا أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك فنقض كعب عهده وبرى مما كان عليه بينه وبين رسول الله ﷺ ودخل مع المشركين فى المحاربة بين المسلمين[3] .

شَجَاعَةُ صَفِيَّة بِنْتِ عَبْدِ المطَّلِبِ:

وبالفعل قامت يهود بنى قريظة بعمليات الحرب ، قال ابن إسحاق: كانت صفية بنت عبد المطلب فى فارع حصن حسان بن ثابت ، وكان حسان بن ثابت فيه مع النساء والصبيان ، قالت صفية: فمر بنا رجل من يهود ، فجعل يُطيف بالحصن وقد حاربت بنو قريظة ، وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ ، وليس بينها وبينهم أحد يدفع عنّا ورسول الله ﷺ والمسلمون فى نحور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا إن أتانا آتٍ ، فقلت: يا حسان إن هذا اليهود كما ترى يُطيف بالحصن ، وإنى والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من يهود ، وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه ، فانزل إليه فاقتله ، قال: «**يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا**» قالت: فلما قال لى ذلك ولم أر عنده شيئا احتجزت[4] ثم أخذت عمودًا ثم نزلت من الحصن إليه فضربته

---

(١) جهام: السحاب الذي لا ماء فيه .

(٢) الذروة والغارب: أعلى ظهر البعير أي أنه لم يزل يخادعه كما يخادع البعير إذا كان نافرًا .

(٣) ابن هشام (٢ / ١٢ - ١٣) ، الرحيق المختوم ٢٧٣ - ٢٧٤ .

(٤) احتجزت: شددت وسطى .

بالعمود ؛ حتى قتلته فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن فقلت: يا حسان انزل إليه فاسلبه ، فإنه لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل ، قال مالى بسلبه من حاجة يا ابنة عبد المطلب[١] .

وقد كان لهذا الفعل المجيد من عمة الرسول ﷺ أثر عميق فى حفظ ذرارى المسلمين ونسائهم ، ويبدو أن اليهود ظنوا أن هذه الآطام والحصون فى منعة من الجيش الإسلامى مع أنها كانت خالية عنهم تمامًا فلم يجترئوا مرة ثانية للقيام بمثل هذا العمل إلا أنهم أخذوا يمدون الغزاة الوثنيين بالمؤن كدليل عملى على انضمامهم إليهم ضد المسلمين ؛ حتى أخذ المسلمون من مؤنهم عشرين جملاً[٢] .

تَحَرِّي الرَّسُولِ ﷺ عَنْ نَقْضِ بَنِي قُرَيْظَةَ لِلْعَهْدِ :

فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ وإلى المسلمين ، بعث رسول الله ﷺ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعبد الله بن رواحة وخوّات بن جبير وقال: «**انطلقوا؛ حتى تنظروا أحق ما بلغنا من هؤلاء القوم أم لا؟**» فإن كان حقا فالحنوا لى لحنًا أعرفه ، ولا تفتوا فى أعضاد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس" .

فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما يكون ، فقد جاهروهم بالسب والعداوة ، ونالوا من رسول الله ﷺ وقالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ، ولا عقد فانصرفوا عنهم فلما أقبلوا على رسول الله ﷺ لحنوا له ، وقالوا: عضل وقارة ، أى كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع ، فقال رسول الله ﷺ : «**الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين**»[٣] .

شِدَّةُ الكَرْبِ بِالمُسْلِمِينَ وَانْسِحَابُ المُنَافِقِينَ:

وقد كان أحرج موقف يقفه المسلمون ، فلم يكن يحول بينهم وبين قريظة شيء يمنعهم من ضربهم من الخلف ، بينما كان أمامهم جيش عرمرم لم يكونوا يستطيعون الانصراف عنه ، وكانت ذراريهم ونساؤهم بمقربة من هؤلاء الغادرين فى غير منعة وحفظ ، وصاروا كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ

---

(١) ابن هشام (٢ / ١٨ - ١٩) .

(٢) الرحيق المختوم ص ٢٧٤ .

(٣) ابن هشام ٢ / ١٣ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الأحزاب: ١٠ - ١١] [(١)].

أما المنافقون فقد انسحبوا من الجيش وزاد خوفهم ؛ حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط ، وطلب البعض الآخر الإذن لهم بالرجوع إلى بيوتهم بحجة أنها عورة [(٢)] وفي هؤلاء أنزل الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ۖ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ١٢ - ١٣] [(٣)].

مُحاوَلَةُ النَّبِيِّ ﷺ تَخْفِيفَ حِدَّةِ الحِصارِ بِعَقْدِ صُلْحٍ مَعَ غَطَفَانَ:

فلما اشتد على الناس البلاء بعث رسول الله ﷺ إلى عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر ، وإلى الحارث بن عوف بن أبي حارثة المري وهما قائدا غطفان ، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بقومهما ، فجرى بينه وبينهما الصلح ؛ حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح إلا المراودة في ذلك فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل ، بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه فقالا له: يا رسول الله أمرًا تحبه فنصنعه أم شيئًا تصنعه لنا؟ قال: **«بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر من شوكتهم إلى أمر ما»** فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله ﷺ قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى [(٤)] أو بيعًا ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ، والله ، ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف ؛ حتى يحكم الله بيننا وبينهم قال رسول الله ﷺ : **«فأنت وذاك»** فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال: ليجهدوا علينا [(٥)].

---

(١) الرحيق المختوم ٢٧٤ - ٢٧٥ .

(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٦٦ - ٢٦٧).

(٣) الرحيق المختوم ص ٢٧٥ .

(٤) القرى: الطعام الذي يصنع للضيف: قرى أي: ضيافة .

(٥) ابن هشام (٢ / ١٤ - ١٥).

شَأْنُ نُعيم فِي تَخْذِيل المُشْرِكِينَ عَنِ المُسْلِمِينَ:

أقام رسول الله ﷺ وأصحابه فيما وصف الله من الخوف والشدة لتظاهر عدوهم عليهم وإتيانهم إياهم من فوقهم ومن أسفل منهم؛ حتى أتى نعيم بن مسعود من بنى غطفان رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ﷺ إنى قد أسلمت، وإن قومى لم يعلموا بإسلامى فمرنى بما شئت فقال رسول الله ﷺ: «**إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا إن استطعت؛ فإن الحرب خدعة**» فخرج نعيم حتى أتى بنى قريظة وكان لهم نديمًا فى الجاهلية، فقال: يا بنى قريظة قد عرفتم ودّى إياكم، وخاصة ما بينى وبينكم قالوا: صدقت لست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشًا وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم بغيره، فليسوا كأنتم فإن رأوا نهزه[1] أصابوها وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم؛ فلا تقاتلوا مع القوم؛ حتى تأخذوا منهم رُهُنا من أشرافهم، يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدًا؛ حتى تناجزوه فقالوا له: لقد أشرت بالرأى.

ثم خرج حتى أن قريشًا فقال لأبى سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش قد عزمتم ودى لكم وفراقى محمدًا، وإنه قد بلغنى أمر قد رأيت على حقا أن أبلغكموه، نصحًا لكم، فاكتموا عنى، فقالوا: نفعل، قال: تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه إنا قد ندمنا على ما فعلنا؛ فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبلتين، من قريش وعطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقى منهم؛ حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم: أن نعم، فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رُهُنا من رجالكم، فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحدًا.

ثم خرج حتى أتى عطفان فقال: يا معشر غطفان؛ إنكم أصلى وعشيرتى وأحب الناس إلىَّ، ولا أراكم تتهمونى، قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم، قال: فاكتموا عنى، قالوا: نفعل فما أمرك؟ ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم[2].

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة٥هـ - بعثوا إلى يهود أنا لسنا بأرض مقام،

---

(١) النهزة: الفرصة تجدها في صاحبك.

(٢) ابن هشام (٢ / ١٩ - ٢٠).

وقد هلك الكُراع والحق[١]، فانهضوا بنا حتى نناجز محمدًا، فأرسل إليهم اليهود أن اليوم يوم السبت، وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه، ومع هذا فإنا لا نقاتل معكم؛ حتى تبعثوا إلينا رهائن، فلما جاءتهم رسلهم بذلك قالت قريش وغطفان: صدقكم والله نعيم، فبعثوا إلى يهود إنا والله لا نرسل إليكم أحدًا، فاخرجوا معنا؛ حتى نناجز محمدًا فقالت قريظة: صدقكم والله نعيم، فتخاذل الفريقان، ودبت الفرقة بين صفوفهم، وخارت عزائمهم[٢].

العِنَايَةُ الإِلَهِيَّةُ تَتَدَخَّلُ لِحَسْمِ الأَمْرِ:

وجاء المسلمون إلى رسول الله ﷺ يسألونه: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ مِنْ شَيْءٍ نَقُولُهُ فَقَدْ بَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ قَالَ[٣]: «**نَعَمْ اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا قَالَ: فَضَرَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وُجُوهَ أَعْدَائِهِ بِالرِّيحِ فَهَزَمَهُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالرِّيحِ**».

عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الأَحْزَابِ فَقَالَ[٤]: «**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ سَرِيعَ الْحِسَابِ، اهْزِمِ الأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وانصرنا عليهم**»[٥].

وقد سمع الله دعاء رسوله ﷺ والمسلمين فبعد أن دبت الفرقة فى صفوف المشركين، وسرى بينهم التخاذل أرسل الله عليهم جندًا من الريح فجعلت تقوض خيامهم ولا تدع لهم قدرًا إلا كفأتها، ولا طنبا إلا قلعته[٦] ولا يقر لهم قرار وأرسل جندًا من الملائكة يزلزلونهم ويلقون فى قلوبهم الرعب والخوف[٧] وفى ذلك قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الأحزاب: ٩][٨].

---

(١) يعني بالكراع: الخيل، وبالحق: الإبل.
(٢) الرحيق المختوم ص ٢٧٦.
(٣) رواه أحمد ١٠٦١٣.
(٤) رواه البخاري ٤١١٥.
(٥) الرحيق المختوم ص ٢٧٦.
(٦) طنبا: الحبال تشد بها الخيمة.
(٧) سيرة الرسول أبو عمار ص ٣٩٩.
(٨) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٧٤).

تَحَرِّي انْصِرافِ الأَحْزَابِ:

روى مسلم بسنده عن حذيفة رضي الله عنه قال: لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الأَحْزَابِ وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «أَلا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ» فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ ثُمَّ قَالَ: «أَلا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ» فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ ثُمَّ قَالَ: «أَلا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ» فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ فَقَالَ: «قُمْ يَا حُذَيْفَةُ فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ» فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ ، قَالَ: «اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَلا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ» فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَبِدِ الْقَوْسِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : «وَلا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ» وَلَوْ رَمَيْتُهُ لأَصَبْتُهُ فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَّامِ فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَفَرَغْتُ قُرِرْتُ فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ فَضْلِ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا فَلَمْ أَزَلْ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحْتُ فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَالَ: «قُمْ يَا نَوْمَانُ» (١) .

ورواه ابن إسحاق: فَدَخَلْتُ فِي الْقَوْمِ وَالرِّيحُ وَجُنُودُ اللَّهِ تَفْعَلُ مَا تَفْعَلُ لا تَقِرُّ لَهُمْ قِدْرٌ وَلا نَارٌ وَلا بِنَاءٌ فَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ لِيَنْظُرْ امْرُؤٌ مَنْ جَلِيسُهُ فَقَالَ حُذَيْفَةُ: فَأَخَذْتُ بِيَدِ الرَّجُلِ الَّذِي إِلَى جَنْبِي فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا فُلانُ ابْنُ فُلانٍ ثُمَّ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إِنَّكُمْ وَاللَّهِ مَا أَصْبَحْتُمْ بِدَارِ مُقَامٍ لَقَدْ هَلَكَ الْكُرَاعُ وَأَخْلَفَتْنَا بَنُو قُرَيْظَةَ بَلَغَنَا مِنْهُمُ الَّذِي نَكْرَهُ وَلَقِينَا مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ مَا تَرَوْنَ وَاللَّهِ مَا تَطْمَئِنُّ لَنَا قِدْرٌ وَلا تَقُومُ لَنَا نَارٌ وَلا يَسْتَمْسِكُ لَنَا بِنَاءٌ فَارْتَحِلُوا فَإِنِّي مُرْتَحِلٌ .

وفي صباح اليوم التالي كان المشركون كلهم قد ولوا الأدبار وعاد رسول الله ﷺ وصحبه إلى المدينة (٢) .

الآنَ نَغْزُوهُم وَلا يَغْزُونَنَا:

وكانت هذه آخر مرة يأتي فيها المشركون لغزو المسلمين في عقر دارهم ، عن سُلَيْمَانَ ابْنِ صُرَدٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ حِينَ أَجْلَى الأَحْزَابَ عَنْهُ: «الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلا

---

(١) رواه مسلم ١٧٨٨ .

(٢) فقه السيرة للبوطي ٢٢٨ - ٢٢٩ .

يَغْزُونَنَا نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ» [١].

العِبَرُ وَالعِظَاتُ:

تنطوى غزوة الأحزاب على العديد من العبر والعظات والدروس والمعجزات نلخصها فيما يلى:

١- اختار النبى ﷺ شمال المدينة لنزول الجند؛ لأن شمال المدينة هو الجانب المكشوف أمام العدو الذى يستطيع منه دخول المدينة وتهديدها، أما الجوانب الأخرى فهى حصينة منيعة، وهذا يدل على أهمية الموقع الذى ينزل فيه الجند، وأنه ينبغى أن يتوافر فيه شرط أساسى وهو الحماية التامة للجند؛ لأن ذلك له أثر واضح على سير المعركة ونتائجها [٢].

٢- لقد كانت خطة الرسول ﷺ فى الخندق منطورة ومتقدمة حيث شرع بالأخذ بالأساليب الجديدة فى القتال، ولم يكن حفر الخندق من الأمور المعروفة لدى العرب فى حروبهم بل كان الأخذ بهذا الأسلوب غريبًا عنهم؛ وبهذا يكون الرسول ﷺ هو أول من استعمل الخندق فى الحروب فى نتائج العرب والمسلمين، فقد كان هذا الخندق مفاجأة مذهلة لأعداء الإسلام وأبطل خطتهم التى رسموها وكان من عوامل تحقيق هذه المفاجأة ما قام به المسلمون فى إتقان رفيع لسرية الخطة وسرعة إنجازها وكان هذا الأسلوب الجديد فى القتال له أثر فى إضعاف معنويات الأحزاب وتشتيت قواتهم [٣].

وهذا من جملة الأدلة الكثيرة التى تدل على أن الحكمة هى ضالة المؤمن، فحيثما وجدها التقطها بل هو أولى بها من غيره، وأن الشريعة الإسلامية بمقدار ما تكره للمسلمين اتباع غيرهم وتقليدهم على غير بصيرة تحب لهم أن يجمعوا لأنفسهم أطراف الخير كله والمبادئ المفيدة جميعها أينما لاح لهم ذلك، وحيثما وجد [٤].

٣- لما علم النبى ﷺ بقدوم جيش الأحزاب وأراد الخروج إلى الخندق أمر بوضع ذرارى المسلمين ونسائهم وصبيانهم فى حصن بنى حارثة؛ حتى يكونوا فى مأمن من

---

(١) رواه البخاري ٤١١٠، سيرة الرسول أبو عمار ص ٤٠٠.
(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٦٠).
(٣) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٦٠ - ٢٦١).
(٤) فقه السيرة للبوطي ص ٢٣٠.

خطر الأعداء وقد فعل ذلكﷺ ؛ لأن حماية الذرارى والنساء لها أثر فعال على معنويات المقاتلين ؛ لأن الجندى إذا اطمأن على زوجه وأبنائه يكون مرتاح الضمير هادئ الأعصاب فلا يشغل تفكيره أمر من أمور الحياة بل يسخر كل إمكاناته وقدراته العقليه والجسدية للإبداع فى القتال[١] .

٤- عمل رسول اللهﷺ مع الصحابة فى حفر الخندق بيده الشريفة بهمة عالية ، لا تعرف الكلل فأعطى بذلك القدوة الحسنة ؛ لأصحابه حتى بذلوا ما فى وسعهم لإنجاز حفر ذلك الخندق[٢] ويتضح لنا من ذلك حقيقة المساواة التى يرسيها المجتمع الإسلامى بين جميع أفراده المسلمين[٣] .

٥- كما شارك الرسولﷺ الصحابة - رضى الله عنهم- فى آلامهم وآمالهم ، بل كان يستأثر بالمصاعب الجمة دونهم ؛ ففى غزوة الأحزاب نجد أنهﷺ كان يعانى من ألم الجوع كغيره بل أشد ، حيث وصل به الأمر إلى أن يربط حجرًا على بطنه الشريف من شدة الجوع ، ثم إنهﷺ شاركهم فى آمالهم ؛ فحين وجد ما يسد رمقه هذا الجوع الذى استمر ثلاثًا لم يستأثر بذلك دونهم ، وهذا ما سوف نعرفه بإذن الله عند الحديث عن وليمة جابر بن عبد الله[٤] .

٦- عمل النبىﷺ على رفع معنويات الجنود وإدخال السرور عليهم من خلال ما كان يرتجز بهﷺ من كلمات ابن رواحة ، وهو ينقل التراب ؛ لأن حفر الخندق اقترب بصعوبات جمة ، فقد كان الجو باردًا والريح شديدة ، والحالة المعيشية صعبة بالإضافة إلى الخوف من قدوم العدو الذى يتوقعونه فى كل لحظة ويضاف إلى ذلك العمل المضنى ؛ حيث كان الصحابة يحفرون بأيديهم وينقلون التراب على ظهورهم ، فلم ينس النبىﷺ أن هؤلاء الجند إنما هم بشر كغيرهم ، لهم نفوس بحاجة إلى الراحة من عناء العمل كما أنها بحاجة إلى من يدخل السرور عليها ؛ حتى تنسى تلك الآلام التى تعانيها فوق معاناة العمل الرئيسى كما كان يأذن لهمﷺ

---

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٦١) .
(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٦١) .
(٣) فقه السيرة البوطي ص ٢٣١ .
(٤) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٦١ - ٢٦٢) .

بالانصراف عند الحاجة لقضاء حوائجهم ثم يرجعون للعمل[١].

٧- إن الحكمة فى استشارته ﷺ لبعض أصحابه فى أن يعرض صلحًا على غطفان رغبته ﷺ أن يطمئن إلى مدى ما يتمتع به أصحابه الصادقون من القوة المعنوية والاعتماد على نصر الله وتوفيقه، رغم هذا الذى فوجئوا به من اجتماع أشتات المشركين عليهم فى كثرة ساحقة إلى جانب ما طلعت به بنو قريظة فى الوقت نفسه من نقض للعهود والمواثيق، وقد كان من عادته ﷺ أنه لم يكن يحب أن يسوق أصحابه إلى حرب أو مغامرة أو لا يجدون فى أنفسهم شجاعة كافية لخوضها، أو لا يؤمنون بجدواها؛ وقد كان هذا من أبرز أساليبه التربوية ﷺ لأصحابه كما أراد بذلك إرساء مبدأ الشورى فى كل ما لا نص فيه[٢].

٨- نرى فى قصة حذيفة بن اليمان لطف النبى ﷺ مع حذيفة عند رجوعه؛ فقد كان النبى يترفق بأصحابه ولم تمنعه صلاة الليل وحلاوة المناجاة من التلطف بحذيفة الذى جاء بأحسن الأنباء وأصدق الأخبار وأهمها، فشمله بكسائه الذي يصلي فيه؛ ليدفئه ويبركه ملفوفًا به حتى أتم صلاته بل حتى أن أفضى إليه بالمهمة، فلما وجبت الكتابة أيقظه بلطف ودعابة قائلاً: «قم يا نومان» دعابة تقطر حلاوة وتفيض بالحنان وتسيل رقة؛ إنها صورة نموذجية للرأفة والرحمة اللتين تحلى بهما فؤاد الرسول ﷺ وصدق الله العظيم فى قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨][٣].

٩- أقبل رسول الله ﷺ على الله - سبحانه وتعالى- بالدعاء والاستعانة مع الأخذ بالأسباب، وهو بذلك يعلمنا سنة الأخذ بالأسباب وضرورة الالتجاء إلى الله وإخلاص العبودية له؛ لأنه لا تجرى وسائل القوة كلها إذا لم تتوافر وسيلة التضرع إلى الله والإكثار من إقبال عليه بالدعاء، والاستغاثة فقد كان الدعاء والتضرع إلى الله من الأعمال المتكررة الدائمة التى فزع إليها رسول الله ﷺ فى حياته كلها[٤].

---

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٦١ - ٢٦٢).
(٢) فقه السيرة للبوطي ص ٢٣٣.
(٣) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٧٥ - ٢٧٦).
(٤) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٧٤).

المعْجِزَاتُ الحسِّيَّةُ للرَّسُولِ ﷺ :

أ- عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضى الله عنه قَالَ أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ قَالَ وَعَرَضَ لَنَا صَخْرَةٌ فِي مَكَانٍ مِنَ الخَنْدَقِ لا تَأْخُذُ فِيهَا الْمَعَاوِلُ قَالَ فَشَكَوْهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ عَوْفٌ وَأَحْسِبُهُ قَالَ وَضَعَ ثَوْبَهُ ثُمَّ هَبَطَ إِلَى الصَّخْرَةِ فَأَخَذَ الْمِعْوَلَ فَقَالَ: «**بِسْمِ اللَّهِ فَضَرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ وَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ وَاللَّهِ إِنِّي لأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ وَضَرَبَ أُخْرَى فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ وَاللَّهِ إِنِّي لأُبْصِرُ الْمَدَائِنَ وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا الأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ وَضَرَبَ ضَرْبَةً أُخْرَى فَقَلَعَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ وَاللَّهِ إِنِّي لأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا السَّاعَةَ**» (١) .

وقد تحققت هذه البشارة التى أخبرت عن اتساع الفتوحات الإسلامية والإخبار عنها فى وقت كان المسلمون فيه محصورين فى المدينة ؛ يواجهون المشاق والخوف والجوع والبرد القارس (٢) .

ب- عن جابر رضى الله عنه قَالَ: إِنَّا يَوْمَ الْخَنْدَقِ نَحْفِرُ فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ شَدِيدَةٌ فَجَاءُوا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الْخَنْدَقِ فَقَالَ: أَنَا نَازِلٌ ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ وَلَبِثْنَا ثَلاثَةَ أَيَّامٍ لا نَذُوقُ ذَوَاقًا فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ الْمِعْوَلَ فَضَرَبَ فَعَادَ كَثِيبًا أَهْيَلَ (٣) أَوْ أَهْيَمَ (٤) فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي إِلَى الْبَيْتِ فَقُلْتُ لامْرَأَتِي: رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا مَا كَانَ فِي ذَلِكَ صَبْرٌ فَعِنْدَكِ شَيْءٌ قَالَتْ: عِنْدِي شَعِيرٌ وَعَنَاقٌ فَذَبَحَتْ الْعَنَاقَ وَطَحَنَتْ الشَّعِيرَ حَتَّى جَعَلْنَا اللَّحْمَ فِي الْبُرْمَةِ ثُمَّ جِئْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَالْعَجِينُ قَدْ انْكَسَرَ وَالْبُرْمَةُ بَيْنَ الأَثَافِيِّ (٥) قَدْ كَادَتْ أَنْ تَنْضَجَ فَقُلْتُ: طُعَيِّمٌ لِي فَقُمْ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَرَجُلٌ أَوْ رَجُلانِ قَالَ: «**كَمْ هُوَ**» فَذَكَرْتُ لَهُ قَالَ: «**كَثِيرٌ طَيِّبٌ**» قَالَ: «**قُلْ لَهَا لا تَنْزِعِ الْبُرْمَةَ وَلا الْخُبْزَ مِنَ التَّنُّورِ حَتَّى آتِيَ**» فَقَالَ «**قُومُوا**» فَقَامَ الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ قَالَ: وَيْحَكِ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَمَنْ مَعَهُمْ قَالَتْ: هَلْ سَأَلَكَ؟

---

(١) رواه أحمد ١٨٢١٩ ، سيرة الرسول أبو عمار ص ٣٨٤ .

(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٨٢) .

(٣) أهيل: رملاً سائلاً .

(٤) أهيم: الرمل الذي لا يتمالك .

(٥) الأثافي: الحجارة التي تنصب .

قُلْتُ: نَعَمْ فَقَالَ: «ادْخُلُوا وَلا تَضَاغَطُوا» [١] فَجَعَلَ يَكْسِرُ الْخُبْزَ وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ وَيُخَمِّرُ الْبُرْمَةَ وَالتَّنُّورَ إِذَا أَخَذَ مِنْهُ وَيُقَرِّبُ إِلَى أَصْحَابِهِ ثُمَّ يَنْزِعُ فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِرُ الْخُبْزَ وَيَغْرِفُ حَتَّى شَبِعُوا وَبَقِيَ بَقِيَّةٌ قَالَ: «كُلِي هَذَا وَأَهْدِي فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ» [٢].

ج- وهذه ابنة بشير بن سعد تقول: دعتنى أمى عمرة بنت رواحة فأعطتنى حفنة من تمر فى ثوبى ثم قالت: أى بنية اذهبى إلى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغدائهما، قالت: فأخذتها فانطلقت بها برسول الله ﷺ، وأنا ألتمس أبى وخالى فقال: «**تعالى يا بنية ما هذا معك**» فقلت: يا رسول الله ﷺهذا تمر بعثتني به أمي إلى أبي بشير بن سعد وخالي عبد الله بن رواحة يتغذيانه، قال: «**هاتيه**» قالت: فصببته في كفي رسول الله فما ملأتهما، ثم أمر بثوب فبسط له ثم دعا بالتمر عليه فتبدد فوق الثوب ثم قال لإنسان عنده: «**اصرخ فى أهل الخندق أن هلم إلى الغداء، فاجتمع أهل الخندق عليه فجعلوا يأكلون منه وجعل يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه، وإنه ليسقط من أطراف الثوب**».

وفى هذين الخبرين معجزات حسية ظاهرة للرسول ﷺكما يظهر دور المرأة المسلمة فى مشاركة المسلمين فى جهادهم.

د- ومن دلائل النبوة أثناء حفر الخندق إخباره ﷺعمار بن ياسر رضى الله عنه وهو يحفر معهم الخندق بأنه ستقتله الفئة الباغية فقتل فى صفين وكان فى جيش عليّ رضى الله عنه [٣].

هـ- الريح العاصفة تعصف بمعسكر المشركين وحدهم دون أن يشعر بها المسلمون إلى جانبهم، فهى هناك تقلب قدورهم وتطير خيامهم وتقلع أوتادها، وتزلزل أفئدتهم بالرعب وهى هنا ريح باردة رخاء تنعش ولا تؤذى أحدًا! وهذه معجزة من المعجزات التى أيد بها الله - سبحانه وتعالى- نبيه ﷺ استجابة لدعائه ولشدة تضرعه [٤].

* * *

(١) ولا تضاغطوا: أي: لا تزاحموا.
(٢) رواه البخاري ٤١٠١.
(٣) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٨١ - ٢٨٢).
(٤) فقه السيرة للبوطي ٢٣٤ - ٢٣٥.

غَزْوَةُ بَنِي قُرَيْظَةَ

أَمْرُ اللهِ لِرَسُولِهِ ﷺ بِحَرْبِ بَنِي قُرَيْظَةَ:

وفي اليوم الذي رجع فيه رسول الله ﷺ إلى المدينة جاءه جبريل - عليه السلام- عند الظهر- وهو يغتسل في بيت أم سلمة فَقَالَ: أو قد وَضَعْتَ السِّلاحَ، فَوَاللَّهِ مَا وَضَعْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَأَيْنَ؟ قَالَ: هَا هُنَا وَأَوْمَأَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ» قَالَتْ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فسار جبريل في موكبه من الملائكة[1].

دَعْوَةُ الرَّسُولِ ﷺ المُسْلِمِينَ لِلْقِتَالِ:

وأمر رسول الله ﷺ مؤذنًا فأذن في الناس من كان سامعًا مطيعًا؛ فلا يصلّينَّ العصر إلا ببنى قريظة، واستعمل على المدينة ابن أم كلثوم وأعطى الراية على بن أبى طالب وقدمه إلى بنى قريظة فسار على؛ حتى إذا دنا من حصونهم سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ.

وخرج رسول الله ﷺ فى موكبه من المهاجرين والأنصار؛ حتى نزل على بئر من آبار قريظة يقال لها: بئر أنّا، وبادر المسلمون إلى امتثال أمره ونهضوا من فورهم، وتحركوا نحو قريظة وأدركتهم العصر فى الطريق فقال بعضهم: لا نصليها إلا فى بنى قريظة كما أمرنا حتى إن رجالاً منهم صلوا العصر بعد العشاء الآخرة، وقال بعضهم: لم يرد منا ذلك وإنما أراد سرعة الخروج فصلوها فى الطريق فلم يعنف واحدة من الطائفتين.

هكذا تحرك الجيش الإسلامى نحو بنى قريظة أرسالاً حتى تلاحقوا بالنبى ﷺ وهم ثلاثة آلاف والخيل ثلاثون فرسًا، فنازلوا حصون بنى قريظة، وفرضوا عليهم الحصار، واستمر الحصار خمسة وعشرين ليلة؛ حتى جهدهم الحصار، وقذف الله فى قلوبهم الرعب[2].

عَرْضُ كَعْبِ بنِ أَسَدٍ لِبَنِي قُرَيْظَةَ:

لما اشتد عليهم الحصار رئيسهم كعب بن أسد ثلاث خصال قائلاً: يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون وإنى عارض عليكم خلالاً ثلاثًا؛ فخذوا أيها شئتم قالوا: وما هى؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه، فوالله لقد تبين لكم أنه لنبى مرسل وأنه للذى تجدونه فى كتابكم فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم، قالوا: لا نفارق

---

(١) رواه البخاري ٢٨١٣، الرحيق المختوم ٢٧٨.

(٢) ابن هشام (٢ / ٢٣ - ٢٤)، الرحيق المختوم ص ٢٧٨.

حكم التوراة أبدًا ، ولا نستبدل به غيره قال: فإذا أبيتم على هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين السيوف[١] لم نترك وراءنا ثقلاً ؛ حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، فإن نهلك نهلك ، ولم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه ، وإن نظهر فلعمرى لنجدن النساء والأبناء ، قالوا: نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم؟ قال فإن أبيتم عليَّ هذه فإن الليلة ليلة السبت ، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد آمنونا فيها ، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرَّة قالوا: نفسد سبتنا علينا ، ونُحدث فيه ما لم يُحدث من كان قبلنا إلا من قد علمت ، فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ! قال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازمًا[٢] .

أَبُو لُبَابَةَ وَتَوْبَتُهُ :

ثم بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر ؛ لنستشيره فى أمرنا وكان حليفًا لهم فأرسله رسول الله ﷺ إليهم ، فلما رأوه قام إليه الرجال ، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون فى وجهه فرق لهم وقالوا له: يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم وأشار بيده إلى حلقه إنه الذبح[٣] ، ثم علم من فوره أنه خان الله ورسوله فمضى على وجهه ولم يرجع إلى رسول الله ﷺ حتى أتى المسجد النبوى بالمدينة ، فربط نفسه بسارية المسجد ، وحلف ألا يحله إلا رسول الله ﷺ وأنه لا يدخل أرض بنى قريظة أبدًا ، فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره - وكان قد استبطأه- قال: **«أما إنه لو جاءنى لاستغفرت له؛ أما إذ قد فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه؛ حتى يتوب الله عليه»** [٤] .

تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَى أَبِي لُبَابَةَ :

قال ابن إسحاق: إن توبة أبى لبابة نزلت على رسول الله ﷺ من السَّحَر وهو فى بيت أم سلمة فقالت أم سلمة: فسمعت رسول الله ﷺ من السحر وهو يضحك فقلت: مما تضحك يا رسول الله؟ أضحك الله سنَّك قال: **«تيب على أبى لبابة»** قلت: أفلا أبشره يا رسول الله؟ قال: **«بلى إن شئت»** فقامت على باب حجرتها وذلك قبل أن يضرب عليهن

---

(١) مصلتين: مجردة من أغمادها .

(٢) ابن هشام (٢ / ٢٤ - ٢٥) .

(٣) ابن هشام ٢ / ٢٥ .

(٤) الرحيق المختوم ٢٧٨ - ٢٧٩ .

الحجاب فقالت: يا أبا لبابة أبشر، فقد تاب الله عليك قالت: فثار الناس إليه؛ ليطلقوه فقال: لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يطلقنى بيده، فلما مر عليه رسول الله ﷺ خارجًا إلى صلاة الصبح أطلقه[١].

نُزُولُ بَنِي قُرَيْظَةَ عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَتَحْكِيمُ سَعْدٍ:

فلما أصبحوا بادروا إلى النزول على حكم رسول الله ﷺ فأمر رسول الله ﷺ باعتقال الرجال، فوضعت القيود فى أيديهم تحت إشراف محمد بن مسلمة الأنصارى، وجعلت النساء والذرارى بمعزل عن الرجال فى ناحية، وقامت الأوس إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله ﷺ قد فعلت فى بنى قينقاع ما قد علمت حلفاء إخواننا الخزرج وهؤلاء موالينا، فأحسن فيهم فقال: «**ألا ترضون أن يحكم فيكم رجل منكم؟**» قالوا: بلى، قال: «**فذاك إلى سعد بن معاذ**» قالوا: قد رضينا فأرسل إلى سعد بن معاذ، وكان فى المدينة لم يخرج معهم للجرح الذى كان قد أصاب أكحله[٢] فى معركة الأحزاب فأُركب حمارًا، وجاء إلى رسول الله ﷺ فجعلوا يقولون: يا سعد أجمل فى مواليك فأحسن فيهم فإن رسول الله ﷺ قد حكمك لتحسن فيهم، وهو ساكت لا يرجع إليهم شيئًا فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم فلما سمعوا ذلك منه رجع بعضهم إلى المدينة فنعى إليهم القوم.

ولما انتهى سعد إلى النبي قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ للأَنْصَارِ[٣]:«**قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ أَوْ خَيْرِكُمْ ثُمَّ قَالَ: إِنَّ هَؤُلاءِ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ**» قَالَ: تَقْتُلُ مُقَاتِلَتَهُمْ وَتَسْبِي ذُرِّيَّتَهُمْ قَالَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**قَضَيْتَ بِحُكْمِ اللَّهِ**»، وَرُبَّمَا قَالَ: «**قَضَيْتَ بِحُكْمِ الْمَلِكِ من فوق سبع سموات**»[٤].

مَقْتَلُ بَنِي قُرَيْظَةَ:

وأمر رسول الله ﷺ فحبست بنو قريظة فى دار بنت الحارث، امرأة من بنى النجار، وحفرت لهم خنادق فى سوق المدينة ثم أمر بهم، فجعل يذهب بهم إلى الخنادق أرسالاً أرسالاً، وتضرب فى تلك الخنادق أعناقهم فقال: من كان بعد فى الحبس لرئيسهم كعب بن

---

(١) ابن هشام ٢ / ٢٦.
(٢) أكحل: عرق في الذراع يفصد.
(٣) رواه مسلم ١٧٦٨.
(٤) الرحيق المختوم ص ٢٧٩.

أسد: ما تراه يصنع بنا؟ فقال: أفى كل موطن لا تعقلون؟ أما ترون الداعى لا ينزع؟ والذاهب منكم لا يرجع ؛ هو والله القتل ، وكانوا ما بين الستمائة والسبعمائة ، فضربت أعناقهم ، وقتل مع هؤلاء شيطان بنى النضير ، وأحد أكابر مجرمى معركة الأحزاب حيى بن أخطب والد صفية أم المؤمنين - رضى الله عنها- كان قد دخل مع بنى قريظة فى حصنهم حين رجعت عنهم قريش وعطفان ؛ وفاءً لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه حينما جاء يسيره على الغدر والخيانة أيام غزوة الأحزاب ؛ فلما أتى به وعليه حلة قد شقها من كل ناحية بقدر أنملة ؛ لئلا يُسْلبها - مجموعة يداه إلى عنقه بحبل- قال لرسول اللهﷺ : أما والله لما لمت نفسى فى معاداتك ، ولكن من يُغالب الله يُغْلب ، ثم قال: أيها الناس لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر ومَلْحَمة كتبها الله على بنى اسرائيل ثم جلس فضربت عنقه .

وقتل من نسائهم امرأة واحدة كانت قد طرحت الرحى على خلاَّد بن سويد فقتله ، فقتلت لأجل ذلك .

وكان قد أمر رسول اللهﷺ بقتل من أنبت ، وترك ممن ينبت ، فكان ممن لم ينبت عطية القُرظى فترك حيًّا فأسلم ، وله صحبة .

واستوهب ثابت بن قيس الزبير بن قيس الزبير بن باطا وأهله وماله - وكانت للزبير يد عند ثابت- فوهبهم له رسول اللهﷺ فقال له ثابت بن قيس: قد وهبك رسول اللهﷺ إليَّ ووهب لى مالك وأهلك فهم لك ، فقال الزبير بعد أن علم بمقتل قومه: سألتك بيدى عندك يا ثابت إلا ألحقتنى بالأحبة ، فضرب عنقه وألحقه بالأحبة من اليهود ، واستحيا ثابت من ولد الزبير بن باطا عبد الرحمن بن الزبير فأسلم وله صحبة .

واستوهبت أم المنذر سلمى بنت قيس النجارية رفاعة بن سموأل القرظى فوهبه لها فاستحيته فأسلم وله صحبة .

وأسلم منهم تلك الليلة نفر قبل النزول ، فحقنوا دماءهم وأموالهم وذراريهم ، وخرج تلك الليلة عمرو بن سعدى وكان رجلاً لم يدخل مع بنى قريظة فى غدرهم برسول اللهﷺ فرآه محمد بن سلمة قائد الحرس النبوى فخلى سبيله حين عرفه ، فلم يعلم أين ذهب[1] ولما ذكر لرسول اللهﷺ قال: «**ذاك رجل نجاه الله بوفائه**»[2] .

---

(١) الرحيق المختوم ص ٢٨٠ .

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٤٠٨ .

قَتْلَى المسْلِمِينَ:

قتل فى حصار بنى قريظة رجل واحد من المسلمين وهو خلاد بن سويد ؛ الذى طرحت عليه الرحى امرأة من قريظة ، ومات من الحصار أبو سنان بن محصن أخو عكاشة[١] .

قسمُ فَيءِ بَنِي النَّضِيرِ:

ثم إن رسول الله ﷺ قسم أموال بنى قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين ، وأعلم فى ذلك اليوم سُهمان الخيل وسُهمان الرجال ، وأخرج منها الخمس ؛ فكان للفارس ثلاثة أسهم: للفرس سهمان ، ولفارسه سهم ، وللراجل سهم ، وكانت الخيل يوم بنى قريظة ستة وثلاثين فرسًا ثم بعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأنصارى أخا بنى عبد الأشهل بسبايا من بنى قريظة إلى نجد ؛ فابتاع لهم بها خيلاً وسلاحًا[٢] .

رَيْحَانَةُ الحَبِيبِ ﷺ :

وكان رسول الله ﷺ قد اصطفى لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن خُنافة ، إحدى نساء بنى عمرو من قريظة ؛ فكانت عند رسول الله ﷺ حتى توفى عنها وهى فى ملكه ، وقد كان رسول الله ﷺ عرض عليها أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب فقالت: يا رسول الله ﷺ بل تتركنى فى مِلْكك ، فهو أخف علىَّ وعليك ، فتركها وقد كانت حين سباها قد تعصت[٣] بالإسلام وأبت إلا اليهودية ، فعزلها رسول الله ﷺ ووجد فى نفسه لذلك من أمرها ، فبينا هو مع أصحابه إذ سمع وقع نعلين خلفه فقال: «**إن هذا لثعلبة بن سعية يبشر فى بإسلام ريحانة**» فجاءه فقال: يا رسول الله قد أسلمت ريحانة فسره ذلك من أمرها[٤] .

وَفَاةُ سَعْدِ بنِ مُعَاذٍ وَاهْتِزَازُ عَرْشِ الرَّحْمَنِ:

ولما تم أمر قريظة أجيبت دعوة العبد الصالح سعد بن معاذ - رضى الله عنه- اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلىَّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه ، اللهم فإنى أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم ؛ فإن كان بقى من حرب قريش شيء فأبقنى لهم حتى أجاهدهم فيك ، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها واجعل موتتى

---

(١) الرحيق المختوم ص ٢٨١ .
(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٤١٠ .
(٣) تعصت: أي: رفضته بشدة .
(٤) ابن هشام ٢ / ٣٢ .

فيها وقال في آخر دعائه: ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة [١].

وكان النبي ﷺ قد ضرب له خيمة في المسجد؛ ليعوده من قريب، فلما تم أمر قريظة انتقضت جراحته، قالت عائشة: فانفجرت من لبته فلم ترعهم، وفي المسجد خيمة من بني غفار إلا والدم يسيل إليهم، فقالوا: يا أهل الخيمة ما هذا الذي يأتينا من قبلكم، فإذا سعد يغزو جرحه دمًا فمات منه.

وفي الصحيحين عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**اهْتَزَّ الْعَرْشُ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ**» [٢]. عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**هَذَا الَّذِي تَحَرَّكَ لَهُ الْعَرْشُ وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَشَهِدَهُ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنْ الْمَلَائِكَةِ لَقَدْ ضُمَّ ضَمَّةً ثُمَّ فُرِّجَ عَنْهُ**» [٣].

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ حِينَ تُوُفِّيَ قَالَ فَلَمَّا صَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَوُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَسُوِّيَ عَلَيْهِ سَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَبَّحْنَا طَوِيلاً ثُمَّ كَبَّرَ فَكَبَّرْنَا فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ سَبَّحْتَ ثُمَّ كَبَّرْتَ قَالَ: «**لَقَدْ تَضَايَقَ عَلَى هَذَا الْعَبْدِ الصَّالِحِ قَبْرُهُ حَتَّى فَرَّجَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُ**» [٤].

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ مَلِكَ الرُّومِ أَهْدَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُسْتُقَةً مِنْ سُنْدُسٍ فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى يَدَيْهَا تَذْبَذَبَانِ مِنْ طُولِهِمَا فَجَعَلَ الْقَوْمُ يَلْتَمِسُونَهَا وَيَقُولُونَ: أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذِهِ مِنْ السَّمَاءِ؟ قَالَ: «**وَمَا يُعْجِبُكُمْ مِنْهَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَمَنَادِيلُ مِنْ مَنَادِيلِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْ هَذِهِ**» [٥].

العبرُ والعظاتُ:

من العبر والعظات التي ظهرت في غزوة بني قريظة ما يلي:-

١- اختلاف الصحابة في فهم كلام رسول الله ﷺ: «**لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة**» مع عدم تعنيف النبي ﷺ أحدًا منهم أو معاتبته؛ دلالة هامة على أصل من الأصول الشرعية الكبرى، وهو تقرير مبدأ الخلاف في مسائل الفروع، واعتبار كل من

---

(١) الرحيق المختوم ص ٢٧٣.
(٢) رواه مسلم ٢٤٦٧.
(٣) رواه النسائي ٢٠٥٥، السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٨٩ - ٢٩٠).
(٤) رواه أحمد ١٤٤٥٩، سيرة الرسول أبو عمار ص ٤١٢.
(٥) رواه أحمد ١٣٢١٤، سيرة الرسول أبو عمار ص ٤١٢.

المتخالفين معذورًا ومثابًا كما أن فيه تقريرًا لمبدأ الاجتهاد فى استنباط الأحكام الشرعية، وفيه ما يدل على أن استئصال الخلاف فى مسائل الفروع التي تنبع من دلالات ظنية أمر لا يمكن أن يتصور أو يتم، فالله - سبحانه وتعالى- تعبّد عباده بنوعين من التكاليف:

أحدهما: تطبيق أوامر معينة واضحة تتعلق بالعقيدة أو السلوك.

ثانيهما: البحث وبذل الجهد ابتغاء فهم المبادئ والأحكام الفرعية من أدلتها العامة المختلفة.

٢- تأكد اليهود من نبوة محمد ﷺ فلقد رأينا من مجرى كلام كعب بن أسد مع إخوانه اليهود، أنهم كانوا على يقين من نبوة محمد ﷺ إطلاع تام على ما أثبتته التوراة من الحديث عنه ﷺ وعن علاماته وبعثته؛ ولكنهم كانوا عبيدًا لعصبتهم وتكبيرهم، وذلك هو سبب الكفر عند كثير ممن يتظاهر بعد الإيمان والفهم، وذلك هو الدليل البين على أن الإسلام فى عقيدته وعامة أحكامه إنما هو دين الفطرة البشرية الصافية ينسجم فى عقيدته مع العقل وينسجم فى تشريعاته وأحكامه مع حاجات الإنسان ومصالحه [(١)].

٣- وفى مقتل حين بن أخطب دروس وعبر منها:

(أ) لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله:

فقد ألب القبائل العربية واليهودية على محاربة الإسلام ونبيه ﷺ وأفنع بنى قريظة بنى قريظة بضرورة نقض العهد مع الرسول ﷺ فجعل الله كيده فى نحره وكبته، وفى النهاية قادته محاولاته إلى حتفه.

(ب) التجلد فى مواطن الشدة:

لقد تجلد حيىّ وتقدم لتضرب عنقه؛ حتى لا يشمت فيه شامت، وهو يعرف أنه على باطل ظالم لنفسه قد أوردها موارد الهلاك، ومع هذا يموت على ذلك والعزة بالإثم تأخذه إلى جهنم وبئس المصير؛ لأنه يعبد هواه، ولم يعبد ربه قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣] [(٢)].

---

(١) فقه السيرة للبوطي ٢٣٨ - ٢٣٩.

(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٩١ - ٢٩٢).

(٤) فضائل سعد بن معاذ رضى الله عنه:

ظهرت لسعد بن معاذ فى هذه الغزوة فضائل كثيرة منها:

ا- إعطاء النبى ﷺ له صلاحية الحكم بما يشاء على بنى قريظة، وجعل موقفه منه وهو رسول الله ﷺ موقف الموافق والمؤيد لكل ما سيحكم به.

ب- أمر النبى ﷺ للأنصار بالقيام إليه حينما أقبل إليهم قائلاً: «**قوموا إلى سيدكم**» وهذا تكريم لسعد، وتقدير لشجاعته؛ حيث سماه سيدًا وأمر بالقيام له.

استجابة الله لدعائه عندما قال: اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إليَّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك ﷺ وأخرجوه، اللهم فإن بقى من حرب قريش شيء فأبقنى له؛ حتى أجاهدهم فيك، وقد استجيب دعاؤه فتحجر جرحه وتماثل للشفاء؛ حتى كانت غزوة بنى قريظة وجعل رسول الله ﷺ الحكم فيهم إليه وكفى الله المؤمنين شر اليهود وتطهرت المدينة من أرجاسهم، رفع سعد يده يدعو الله ثانية يقول: اللهم فإنى أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم يعني: قريش والمشركين، فإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها واجعل موتي فيها، وقد استجيب دعاؤه فانفجر جرحه تلك الليلة ومات[1]، ونلاحظ من خلال دعائه الأول والثاني أن هذا الدعاء العجيب، دعاء العظماء الذين يعرفون أن رسالتهم فى الحياة ليست الاستشهاد فقط، بل متابعة الجهاد إلى اللحظة الأخيرة فهو المسئول عن نصرة الإسلام فى قومه وأمته[2] وقد استجاب الله دعاؤه، وذلك أنه لم يقع بين المسلمين وبين قريش من بعد وقعة الخندق حرب يكون ابتداء القصد فيها من المشركين[3].

* * *

(١) فقه السيرة للبوطي ٢٤١ - ٢٤٢.

(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٨٨ - ٢٨٩).

(٣) فقه السيرة للبوطي ٢٤١ - ٢٤٢.